دروس وفوائد من ولادة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله

المقدمة:

إنّ الحديث عن الذوات المقدّسة التي أشرقت بأنوارها ساحة الوجود، لا يمكن أن يُتناول بسطحية أو بعرضٍ عابر؛ بل يستدعي الغوص في أعماق المعنى، والتأمل في كلّ جزئية من جزئيات حياتهم وآثارهم، لما تنطوي عليه تلك النفوس الزكية من أسرار النور الإلهي، وكنوز الحكمة الربانية.

ومهما اجتهد الباحث في التتبّع والتحقيق، فلن يحيط بحقيقة تلك الأنوار القدسية، إذ إنّها فوق ما تُدركه العقول المحدودة. وإنما غاية البحث أن يكون وقوفاً عند بعض أنحائها، وتلمّساً لبعض إشراقاتها.

ومن هنا كانت هذه المحاولة لعرض قبسٍ من عظمة النبي الأكرم محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله)، وذلك عبر التأمل في ولادته المباركة، التي لم تكن مجرد حدثٍ تاريخي، بل هي بداية عهدٍ جديد في مسيرة الإنسانية، وتجسيدٌ لأعظم نعمةٍ إلهيةٍ أفيضت على العالمين.

مقترح صورة عبارة عن نور شديد يخرج من بين الجدران. أو عبارة عن شروق شمس من بين الظلام.

درس ولادة العظمة

إنّ ولادة سيّد الكائنات، وخاتم المرسلين، محمد المصطفى (صلى الله عليه وآله)، ليست مجرّد واقعة تاريخية عابرة، بل هي أعظم فيضٍ إلهي أفاضه الله على البشريّة، ونعمة كبرى بدّل بها مجرى التاريخ، فانتقلت بها الإنسانية من غياهب الجاهلية وظلمات الضلال إلى أنوار الهداية والرشاد.

ومن هذا الحدث الجليل يمكن استلهام دروس سامية، واستخراج فوائد جمّة، تُضيء درب الباحث عن الكمال، وتُرشد السالك نحو الحقّ. ويمكن تقسيم هذه الدروس إلى قسمين رئيسيين؛

القسم الأوّل: وهو ما يتعلّق بأحوال النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله)، وصفاته، وإشراقاته منذ ولادته المباركة، وما تحمله من معانٍ عالية ودلالات عظيمة.

1- درس الرحمة الإلهية العامة

لقد عبّر مولده الشريف عن قمة الرحمة الإلهية التي شملت العالم بأسره، إذ قال تعالى: **((وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ))**[1].

وقد فسّر أهل البيت (عليهم السلام) أنّ هذه الرحمة تشمل المؤمن والكافر، والإنسان والجن، بل حتى الحيوان والجماد.

التطبيق العملي: أن نتخلق بهذه الرحمة في حياتنا اليومية، فنكون سبباً للتيسير لا للتعسير، ومصدراً للحنان لا للقسوة.

2- درس انتصار الأمل على اليأس

ولد النبي صلى الله عليه وآله في زمنٍ غارقٍ بالظلم والجهل، زمنٍ سُمّي بـ (الجاهلية الأولى). ومع ذلك بزغ النور من قلب الظلمات، ليعلّم البشرية أنّ اليأس ليس خياراً أمام من يستند إلى الله. قال تعالى: **((قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ))**[2].

التطبيق العملي: علينا أن نزرع الأمل في نفوسنا ونفوس الآخرين، مهما اشتدت الأزمات.

---

(1) سورة الأنبياء، الآية 107.

(2) سورة الزمر، الآية 53.

3- درس الاصطفاء الإلهي للبشر

إنّ اختيار الله لنبيّه من البشر، لا من الملائكة، هو دليل على أنّ الإنسان قادرٌ على بلوغ أعلى مقامات الكمال. قال أمير المؤمنين عليه السلام: **(بَعَثَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مُحَمَّداً رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وآله) لِإِنْجَازِ عِدَتِهِ وَإِتْمَامِ نُبُوَّتِهِ مَأْخُوذاً عَلَى النَّبِيِّينَ مِيثَاقُهُ مَشْهُورَةً سِمَاتُهُ)**[1].

التطبيق العملي: أن نؤمن بقدرتنا على السمو الروحي والأخلاقي، إذا سرنا على هدى النبي وأهل بيته.

4- درس التربية والإعداد الإلهي

هيأ الله لنبيه أسباب التربية المثلى منذ طفولته؛ إذ نشأ في بيئةٍ تحصنه من أدران الجاهلية، حتى سُمّي بالصادق الأمين قبل بعثته. قال تعالى: **((اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ))**[2].

التطبيق العملي: إنّ الإعداد السليم علمياً وروحياً وبدنياً أساسٌ لكلّ قائدٍ ومصلح.

5- درس المساواة والإخاء الإنساني

جاءت رسالته لتؤكد أنّ ميزان التفاضل هو التقوى لا النسب. قال صلى الله عليه وآله: **(أَيُّهَا النَّاسُ إِنَ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ كُلُّكُمْ لِآدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ وَلَيْسَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ فَضْلٌ إِلَّا بِالتَّقْوَى)**[3].

التطبيق العملي: رفض كل أشكال العنصرية والطبقية، وبناء المجتمع على أسس العدالة والتقوى.

---

(1) الشريف الرضي، محمد بن حسين، نهج البلاغة، ص44.

(2) سورة الأنعام، الآية 124.

(3) ابن شعبة الحراني، الحسن بن علي، تحف العقول، ص34.

6- درس العناية الإلهية بالتفاصيل

الأحداث المصاحبة لولادته، كإطفاء نار فارس، وانهيار شرفات قصر كسرى، وانطفاء الأصنام، هي شواهد على أنّ مولده كان إيذاناً بتغيير موازين التاريخ. وقد روي عن الإمام الباقر عليه السلام: **(وُلِدَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وآله) لَيْسَ مِنْهَا صَنَمٌ إِلَّا وَهُوَ مُنْكَبٌّ عَلَى وَجْهِهِ وَارْتَجَسَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ إِيوَانُ كِسْرَى وَسَقَطَتْ مِنْهُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ شُرْفَةً وَغَاضَتْ بُحَيْرَةُ سَاوَةَ وَفَاضَ وَادِي السَّمَاوَةِ وَخَمَدَتْ نِيرَانُ فَارِسَ وَلَمْ تَخْمُدْ قَبْلَ ذَلِكَ بِأَلْفِ عَامٍ)**[1].

التطبيق العملي: الثقة بأنّ لله تدبيراً في كلّ حدث، حتى وإن خفيت حكمته عن أعيننا.

7- درس بداية النور بعد الظلام

كان مولده بشارة بزوال عهود الظلم وبداية عهد النور. قال تعالى: **((قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ))**[2]. وقد فسّر أهل البيت (عليهم السلام) هذا النور بأنّه رسول الله صلى الله عليه وآله.

التطبيق العملي: أن نكون حملةً لهذا النور، فنواجه ظلمات الجهل والفساد بنور الإيمان والمعرفة.

8- درس الشكر على النعمة

ولادته صلى الله عليه وآله أعظم نعمة، وشكرها يكون بالاتباع والطاعة. قال تعالى: **((قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ))**[3].

التطبيق العملي: أن نقتدي بأخلاقه وعبادته وجهاده، ونُعرّف الناس برسالته.

---

(1) ابن بابويه (الصدوق)، محمد بن علي، الأمالي، ص285.

(2) سورة المائدة، الآية 15.

(3) سورة آل عمران، الآية 31.

القسم الثاني: العظمة الإلهية في ولادة النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله).

إنّ الله جلّ شأنه، الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلّه، بعث محمداً (صلى الله عليه وآله) رحمةً للعالمين، وحجّةً على الخلق أجمعين، ومظهراً لأسمائه الحسنى بأجلى صورها، وواسطةً بينه وبين عباده. ومن هنا لم تكن ولادته حدثاً تاريخياً عابراً، بل كانت تحوّلاً وجودياً فاصلاً، ونقطة التقاء بين الحضرة الإلهية والعالم الإنساني، ومفتاحاً لأوسع الدروس التي تتسع دوائرها من الفرد إلى الكون، حتى تبلغ عوالم الميتافيزيقا.

الدائرة الأولى: الدرس الوجودي والتشريفي (عظمة التخطيط الإلهي)

1- التجلي الأتمّ للاسم (الرحمن)

ولادته (صلى الله عليه وآله) هي أعظم إشراقٍ لرحمة الله التي سبقت غضبه، وتمام رحمته التي انتظرها الوجود منذ الأزل، إذ به اكتملت حلقات الوحي، وبه تفتحت أبواب الهداية. فلم يكن رحمةً للناس وحدهم، بل كان رحمةً للوجود أجمع: **((وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ))**[1]. وهو الإنسان الكامل الذي تجسّدت فيه العبودية الخالصة، فصار محور الغاية من الخلق: **((وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ))**[2]. ومن هنا، فإنّ محبتَه واتباعَه ليست مجرد انفعالٍ عاطفي، بل هي دخول في مدرسة الرحمة الإلهية ذاتها.

2- إكمال حلقة النبوة وختم الرسالات

نبوّته لم تكن طفرة، بل تتويجاً لمسيرة الأنبياء جميعاً، فكما كان آدم (عليه السلام) أول نبي، كان محمد (صلى الله عليه وآله) خاتمهم. وختم النبوة ليس بالزمن فحسب، بل بالكمال والجوهر؛ فقد جمع في ذاته جميع مقامات الأنبياء، وتمّم مكارم الأخلاق كما قال:

---

(1) سورة الأنبياء، الآية 107.

(2) سورة الذاريات، الآية 56.

(إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ)[1]. ومن هنا فالإسلام ليس ديناً جديداً، بل هو الصورة النهائية للدين الإلهي الذي جاء به كل الأنبياء.

الدائرة الثانية: الدرس الأنثروبولوجي (عظمة تعريف الإنسان)

1- إعادة تعريف الإنسان ورفع منزلته

في الجاهلية غاب المعنى الحقيقي للإنسان، حتى صار يعبد الحجر والشجر والهوى، فجاء النبي صلى الله عليه وآله ليكشف أنّ الإنسان خليفة الله في أرضه: **((وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ))**[2]. وهو النموذج الأكمل لهذا الخليفة، الذي حمل الأمانة التي أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها. وبذلك صار الاقتداء به سبيل بلوغ القرب الإلهي، لا بالتحليق كالملائكة، بل بجهاد النفس وترويض الشهوات.

2- النبي مظهراً للاسم الأعظم (الله)

الأسماء الحسنى إنما تتفرع من الاسم الجامع (الله)، وقد كان النبي (صلى الله عليه وآله) المظهر الأكمل له؛ فكان رحمته شعاعاً من رحمة الله، وعلمه قبساً من علم الله، وقدرته انعكاساً لقدرة الله. ومن هنا جاء في الحديث الشريف: **(فَمَنْ أَطَاعَ مُحَمَّدًا فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ، ومَنْ عَصَى مُحَمَّدًا فَقَدْ عَصَى اللهَ)**[3].

الدائرة الثالثة: الدرس المعرفي (عظمة المنهج المعرفي)

1- إنقاذ العقل البشري وتأسيس المنهج المتكامل

أتى (صلى الله عليه وآله) بالمنهج الجامع بين العقل والوجدان والوحي، فلم يلغ العقل كما فعلت بعض الأديان المحرفة، ولم يقدّس الهوى كما صنعت الفلسفات المادية، بل جعل

---

(1) الطبرسي، الحسن بن الفضل، مكارم الأخلاق، ص8.
(2) سورة الإسراء، الآية 70.
(3) بيهقي، احمد بن حسين، دلائل النبوة، ج1 ص371.

العقل خادماً للوحي، والقلب جسراً للمعرفة. وهكذا جمع بين البرهان والعرفان والقرآن، فكان منهجاً يحفظ التوازن بين النقل والعقل.

2- القرآن الناطق

إنّ القرآن الكريم هو الكلمة الإلهية المسطورة، أمّا النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله فهو الكلمة الإلهية المتجسّدة. ولولا معرفة شخصيته المباركة وسيرته العطرة، لما أمكننا إدراك القرآن إدراكًا كاملاً؛ إذ كانت حياته بأسرها التفسير العملي للكتاب العزيز. ومن هنا يتبيّن أنّ حبّ القرآن لا ينفكّ عن حبّ النبي، وأنّ الارتباط به (صلى الله عليه وآله) هو السبيل الأوحد لفهم معرفة الله تعالى فهماً سديداً وصحيحاً.

الدائرة الرابعة: الدرس العملي السلوكي (كيف نعيش العظمة)

1- التشريف يقابله التكليف

إنّ انتماءنا إلى أمة النبيّ محمد (صلى الله عليه وآله) ليس مجرّد شرفٍ نُزيَّن به، بل هو تكليفٌ ومسؤولية جسيمة ألقاها الله تعالى على عاتقنا. فنحن –وإن كنّا آخر الأمم– إلا أنّنا أولى الناس بالمسؤولية؛ إذ ورثنا الرسالة الخاتمة، وحُمّلنا واجب تبليغها للعالمين. وعليه، فإنّ محبتنا للنبيّ الأكرم يجب أن تتحوّل من عاطفة وجدانية إلى منهج حياة، نقتدي فيه بأخلاقه، ونحيي سنّته، وندافع عن شريعته، ونسير على خطاه في أدقّ تفاصيل حياتنا.

2- الاتصال الروحي الدائم

وجود النبيّ (صلى الله عليه وآله) ليس مقصوراً على حقبة زمنية محدودة، بل هو حضور ممتدّ في هذا العالم وفي العوالم الأخرى. فقد كان قبل آدم (عليه السلام)، وكان محيطاً بالأنبياء جميعاً، يستمدّون منه العون والمدد. وهو معنا اليوم، يسمعنا ويعلم بنا، سواء قصدنا قبره الشريف أم لم نقصد؛ إذ إنّ روحه المقدّسة في العالم الرفيع تفيض بركتها على من تمسّك بولائه.

ومن هنا، فإنّ الإكثار من الصلاة والسلام عليه إنما هو تجديدٌ للعهد واتصال دائم به، به يرقى المؤمن درجة بعد درجة، ويقترب من شفاعته العظمى. وقد ورد في الحديث الشريف عن عبد الله بن مسعود، أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: **(أَوْلَى النَّاسِ بِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ عَلَيَّ صَلَاةً)**[1].

واجباتٌ ولوازم في ذكرى المولد النبوي الشريف

إنّ الاحتفاء بذكرى المولد النبوي الشريف لا يُختَزل في كونه عادة اجتماعية أو مناسبة للفرح العابر، بل هو محطة سنوية متجدّدة، نرتقي فيها بوجداننا ومعرفتنا وسلوكنا، ونجدّد من خلالها العهد مع رسول الله (صلى الله عليه وآله). ولعلّ ما يلزمنا الالتفات إليه والعمل به يتوزّع على مستويات عدّة، أبرزها:

المستوى الأول: البعد القلبي والوجداني (العاطفة والإيمان)

1- تفعيل المحبّة الصادقة

المحبّة اللسانية لا تكفي، بل لا بدّ أن تتحوّل إلى محبّةٍ عمليةٍ تقدّم طاعة الله ورسوله على كلّ محبوبٍ آخر. قال تعالى: **((قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ... أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ))**[2].

وتفعيل ذلك يكون بمراجعة القلب والسلوك: من نُطيع؟ من نُرضي؟ ما الذي يُسخطنا؟ ليكون رضا الله ورسوله هو المعيار الأعلى.

2- تعميق الشكر على النعمة

وجود النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله) هو أعظم نعمةٍ منَّ الله بها على البشرية، إذ أخرجها من الظلمات إلى النور. وكل هدىً وخيرٍ ننعم به إنما هو ثمرة بعثته المباركة. ومن

---

(1) الطبرسي، الحسن بن الفضل، مكارم الأخلاق، ص312

(2) سورة التوبة، الآية 24.

صور التفعيل: الإكثار من الحمد والشكر لله تعالى، وربط النعم بالمنّة النبوية، والارتباط بأهل بيته عليهم السلام في التعلّم والشكر.

المستوى الثاني: البعد المعرفي والعلمي (الفهم والوعي)

1- دراسة سيرته بعمق وتدبّر

سيرة النبي (صلى الله عليه وآله) ليست حكايات تُروى، بل منهج حياةٍ يُحتذى. والواجب قراءتها قراءة تدبّرية تستخلص الدروس والعِبَر. ومن الوسائل المعينة: مراجعة المصادر المعتبرة كسيرة الشيخ عباس القمي، والصحيح من سيرة النبي الأعظم للسيد جعفر مرتضى العاملي، مع التركيز على سؤال (لماذا) فعل كذا، لا مجرد (ماذا) فعل.

2- فهم مقاصده وشريعته

غاية الرسالة النبوية إقامة العدل والرحمة وصيانة مصالح العباد. وفهم مقاصد الشريعة هو السبيل لإدراك عظمة الإسلام ومرونته. ويتحقق ذلك بمطالعة كتب المقاصد، وربط الأحكام بمقاصدها الكلية: حفظ الدين، النفس، العقل، النسل، والمال.

المستوى الثالث: البعد العملي والسلوكي (التطبيق والاقتداء)

1- الاقتداء الأخلاقي

لقد كان خُلقه القرآن، ومن هنا فإنّ الاحتفاء بمولده الشريف مدعاة لتجديد العهد بأخلاقه. قال تعالى: **((لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ))**[1]. والتفعيل يتم باختيار خُلقٍ من أخلاقه العظيمة –كالصبر أو الكرم أو الرحمة– والتدرّب عليه حتى يصير سجية.

2- إحياء سننه العملية

كلّ سنّةٍ نبوية تُبعث من جديد هي إعلانُ ولاءٍ وحبٍّ. سواء في آداب المعاشرة أو الطعام أو اللباس أو العبادات. والتفعيل يبدأ بتعلّم سنّةٍ مهجورة والعمل بها ونشرها بين الأقربين.

---

(1) سورة الأحزاب، الآية 21.

المستوى الرابع: البعد الدعوي والاجتماعي (النشر والمسؤولية)

1- الدعوة إليه والدفاع عنه

من أعظم حقوقه علينا نصرتُه والذبّ عن شخصه الكريم. وفي عصرنا تكون النصرة ببيان سماحته وعدله ورحمته للعالمين، ودفع الشبهات المثارة حوله بالحكمة والموعظة الحسنة.

2- تجديد البيعة والمعاهدة

إنّ يوم مولده الشريف يومُ تجديد البيعة على الطاعة والثبات، واستحضار العهد الأول مع الله: **((أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى))**[1]. والتفعيل يتحقق بالمراجعة الصادقة للنفس وتصحيح المسار وزيادة العزيمة على الطاعة.

المستوى الخامس: البعد الروحي والعبادي (الصلة القلبية)

1- الإكثار من الصلاة عليه

الصلاة على النبي وآله صلة روحية متجدّدة، ومفتاح للرحمة والقبول. ومن صور التفعيل: تخصيص وردٍ يوميٍّ منها، ولا سيما صلاة الوسيلة: **((اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ...))**.

2- القيام بأعمال البر والخير

الفرح بمولده لا يُترجم إلا بإسعاد الخلق كما كان يسعدهم. ومن صور التفعيل: التصدّق على الفقراء، إطعام الطعام، صلة الأرحام، والإحسان إلى المحتاجين.

---

(1) سورة الأعراف، الآية 172.

الخاتمة

إنّ الدرس الأعمق من ذكرى المولد النبوي الشريف هو أنّنا أمة المعية، لسنا منفصلين عن نبينا، بل في معيته دائماً: معية تشريف، وتكليف، واتباع، ومحبة. قال تعالى: **((قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ))**[1].

فالمحبة والاتباع هما السبيل إلى رحمة الله ومغفرته، والفرح بمولده لا يكتمل إلا بالاقتداء بسنّته ونشر رحمته في الأرض، حتى نكون بحقّ من **((خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ))**[2]. ثم إنّ تكريم النبي لا ينفصل عن تكريم عترته وذريته الطاهرين، **((قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ))**[3].

وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين، ما تعاقب الليل والنهار، وما دامت السماوات والأرض..

---

(1) سورة آل عمران، الآية 31.

(2) سورة آل عمران، الآية 110.

(3) سورة الشورى، الآية 23.